

وطن يقتل محبيه

هي الكلمات التي تهرب مني. من يبحث لنا عن لغة أخرى، نستطيع معها، أن نعبر عن كل هذا الموت والحزن والغضب الذي يفترسنا، عن هذه الكراهية التي يحاولون أن يجرونا إليها. أيقظ لنا أن نلعن ونكفر، في ظل أعراس الحقد المتنقلة ضد حلم صغير من أحلام البشرية السوية؟

صعب جداً أن أف أف الآن، وسط كل هذا العري الذي يلفنا من كل الجهات، لأستعيد جزءاً من عمر يحضر فيه. من الصعب أيضاً أن أصدق أن سمير قصير وضع قلمه، قسرياً، مرغماً، لأن كلاب المدينة، تريد أن تفترس كل شيء. كان يرغب في بلد يسكنه بشر أسوياء، يتقاسمون حلم العدالة والحرية والمساواة والديموقراطية. أعرف، لا زالت هذه الكلمات صعبة التحقق في عالم عربي، تعشش فيه ظواهر الأمراض العسكرية، والأيدولوجيات الهرمة، والقادة البتسمين من على الشاشات.

هو القتل الذي لم يبق لنا سوى أن ننتظره جميعاً. هو الرعب المتنقل، حين تعجز عقولهم عن فهم ما معنى أن من حق الإنسان أن يقول ما يريد، أن يفكر بما يريد، أن يكتب ما يكتبه. كيف تريد إفهام الأيمن أن الوطن لا يصاغ عبر الرعب والترهيب والاعتيالات، أن الوطن ليس سوى هذه الشمس التي ستسطع يوماً، برغم الجميع. هو القتل الذي علينا أن نقف كلنا في وجهه، لننقذ ما تبقى لنا من إنسانيتنا التي نرغب في أن تبقى ساطعة، وسط انفجارات هذه السيارات، ولا وسيلة لدينا إلا هذا العري النقي، الصافي، الطاهر، الذي يشبه أحلامنا النقية.

هل هو حب الوطن الذي علينا أن نتجنبه؟ أنقذونا من هذا الحب، لكن أنقذونا قبلاً من كرهنا له. لأن حبه لنا يدفعه إلى قتلنا واحداً بعد الآخر. وهو لا يقتل إلا أجملنا، لا يقتل إلا أفضل ما فيه. أي أوطان تقف ضد أبنائها، إلا بلدان العرب المتداعية، القميئة، بفضل من يحكمونها؟

صعبة علي، اليوم، هذه اللغة التي تفقد معناها، ومع ذلك سنبقى نؤمن أنها لن تخوننا مرة أخرى، لتحمل غداً كل هذه الشفقة على القتلة، فحزنا أجمل وأبهى، وأنقى من أعراسهم.

أيقظ لنا أن نقول لك وداعاً يا سمير؟ أريد فقط أن أشكرك، على كل الأيام التي كنا نلتقي فيها، على كل الأحاديث التي كنا نتبادلها، على كل هذه اللحظات، التي لن أستعيدها، لأنها حاضرة، وأراها تناسب أمامي، دفعة واحدة، ومن دون أن تتمهل. صعبة هذه اللغة، حين تعجز عن القول «كم سنفتقدك»، وإلا لما كان الجميع قد أضأوا الشموع وبكوا بصمت....